مقالات؛ تحت ظلال السيوف...

{فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ}

بقلم؛ سيف الدين الأنصاري

كنا قد تحدثنا عن سنة التمييز، وقلنا إنها عبارة عن عملية فرز داخلي تستهدف التفريق بين المؤمنين والمنافقين، منعاً لاستمرار حالة الاختلاط التي تشكل أخطر العوامل للتهديد الجبهة الداخلية للجماعة المسلمة، قال تعالى: {حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [آل عمران: 79]، وقلنا كذلك إن الأداة الأساسية لتحقُق هذا التمييز هي الابتلاء، لأنه الحدث الذي يستخرج المواقف المعبرة عن الحقيقة، قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِين وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} [آل عمران: 166].

لكن المشكلة هي أن ينظر البعض إلى تلك المواقف - التي يسفر عنها الابتلاء - على أنها لا تعدو أن تكون حالات ضعف لا تستدعي هذا النوع من التصنيف، أو على أنها وجهات نظر لها ما يبررها، أو على أنها من باب الاختلاف الذي لا يفسد للدين قضية!! وهكذا.. مما يؤدي في النهاية إلى نوع من الالتباس والغموض يستحيل معه أن يتحقق التمييز رغم كل ما يقع من المنافقين، لأن التمييز هو محصلة أمرين اثنين: أولهما ظهور مواقف النفاق وصفات المنافقين على أصحابها، وثانيهما: علم المؤمنين بأن هذه المواقف وهذه الصفات هي من علامات المنافقين، ولذلك قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} [محمد: 29].

قال ابن كثير: (أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر) [التفسير: 4/81].

ومن هنا كانت المعرفة بعلامات المنافقين ضرورية، لأنها الأساس الثاني لتحقق التمييز، قال تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُم} [محمد: 30].

قال الطبري: (فلتعرفنهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم) [التفسير: 26/60].

ولعل هذا هو الفارق بين هذا الجيل والجيل الأول، فإن النبي عليه الصلاة والسلام - نفسَه - لم يكن قد عُين له كل المنافقين بأشخاصهم، وإنما كما قال ابن كثير: (كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم) [التفسير: 1/50].

وقد بلغ من اهتمام القرآن بالمنافقين إلى الحد الذي نزلت سورة كاملة بأسمائهم "المنافقون"، فكما أن هناك سورة "المؤمنون" وسورة "الكافرون"؛ هناك سورة "المنافقون"، بل إن الحديث عن النفاق في القرآن الكريم حديث ذو شجون، وقد أطال فيه بما من شأنه أن يوحي بخطور هذا النوع من الأعداء وضخامة الدور الذي يقومون به في التأثير على الجماعة المسلمة من الداخل.

* * *

أولاً: أصناف المنافقين:

أشار القرآن إلى صنفين من النفاق، وضرب المثل لكل واحد من الصنفين لتتحدد الصورة ويسهل كشف هذه العناصر وتفهم أنماط سلوكها.

الصنف الأول: النفاق الدائم، وهو النفاق الذي لا يتخلله إيمان قط، فحقيقة هذا الصنف من المنافقين أنهم كفار مستترون بالإسلام، قال تعالى: {أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ} [الأحزاب: 19]، وقد ضرب الله لهم مثلا فقال: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُون} [البقرة: 17]. وقد يدخل هؤلاء إلى الصف الإسلامي إما رغبة في مصالح مادية أو معنوية يحصلونها بهذا الإنتساب، فيجعلون الإسلام ستارا لتحقيق الغرض، وإما رهبة من قوة المسلمين واتقاء للعقاب الذي يمكن أن يلحق بهم جزاء على كفرهم.

الصنف الثاني: النفاق المتذبذب، وهو النفاق الذي يتخلله إيمان، لا يستقرون لا على الكفر ولا على الإيمان، قال تعالى: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَـؤُلاء} [النساء: 143]، فهم - في حقيقة أمرهم - مرة من المؤمنين ومرة من الكافرين!!، وقد ضرب الله لهم مثلا فقال: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ

وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} [البقرة: 20]، فهذا الصنف من المنافقين ليس جادا مع نفسه إلى الحد الذي يحسم قضيته، بل حاله أنه عندما تهب عليه نسمات الإيمان وتهيء له عوامل التفاعل مع النور الرباني فإنه يؤمن {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ}، وعندما ترد عليه شبهات الكفر أو تتحرك عنده شهوات النفس فإن يكفر {وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا}، وما هذا التذبذب والاضطراب والأرجحة إلا تعبيرا عن فساد العمق الداخلي لهؤلاء القوم، قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَض} [البقرة: 10].

ولكن لابد في هذا المقام من أن نسجل ملاحظتين اثنيتين:

أولهما: أنه رغم وجود اختلاف بين هذين الصنفين من المنافقين إلا أنهما يتشابهان في الصفات الظاهرة تشابها كبيرا، وفي الوقت نفسه يشتركان في المواقف اشتراكا يصل إلى حد التطابق، قال تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورا} [الأحزاب: 12].

وثانيهما: أن النفاق مراتب متعددة وليس على مرتبة واحدة، أي أن المنافق قد يتطور في النفاق ويتقدم فيه إلى الحد الذي يصبح معه خبيرا في النفاق، قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} [التوبة: 101].

* * *

ثانياً: صفات المنافقين:

رغم أن المنافقين يحاولون دائما التستر تحت شعار الإسلام إلا أن الوحي الرباني قد كشف صفاتهم وأظهرها إلى الحد الذي يساعد الجماعة المسلمة على تمييز الخبيث من الطيب.

1) فلسفة المعصية:

كثيرة هي المرات التي يتخلف فيها الناس عن الاستجابة للحق، ولكن قليلة هي الحالات التي يعترف فيها هؤلاء المتخلفون عن الاستجابة بالسبب الحقيقي في هذا

التخلف وأنه الهوى الـذي ينشـيء الضـعف أمـام متطلبـات الطريق، ولذلك يلجأ هـؤلاء المتخلفـون إلـى سـتر السـبب الحقيقـي بعـدد مـن التـبريرات والتعليلات الـتي يسـوقونها بطريقـة التمنطـق فـي معالجـة الأمـر، ليثبتـوا للنـاس أن تخلفهم عن الاستجابة له ما يبرره، بـل هـو الصـواب عينـه، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَـالُوا إِنَّمَـا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [البقرة: 11]، وهـؤلاء هـم المنـافقون، لا يكتفون بعدم الاستجابة للحق، ولا يقفون عند حد المخالفـة للأمـر الواضـح ولكنهـم يجتهـدون فـي فلسـفة المعصـية، ويصرون على ذلك حتى وإن أدى إلى قلب أوضح الحقـائق الشرعية والقدرية، فهَـمّ القـوم أن تبقـى أشخاصـهم فـوق الاتهام!!

2) الاستكبار والتعالي:

نفـوس هـؤلاء القـوم منتفخـة، ينظـرون إلـى عامـة المؤمنين من فوق، قال تعالى: {وَإِذَا قِيـلَ لَهُـمْ آمِنُـوا كَمَـا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّـفَهَاءُ} [البقـرة: 13]، فالمـانع مـن اسـتجابتهم للحـق هـو مشـاركة الفقـراء والمساكين في هذا الحق، لأن هذه المشاركة تحرمهم مـن شهوة الاستعلاء.

وقد يكـون المـانع مـن الاسـتجابة للحـق هـو التعـالي بالفكر!! بحيـث يسـتكثرون علـى أنفسـهم أن يفهمـوا مـن الأمـر تلـك المعـاني المتبـادرة للجميـع، بحجـة أنهـا معـاني بسيطة وساذجة لأنها مفهومـة للنـاس "العـاديين" أمـا هـم فأصـحاب العقـول الكـبيرة الـذين لا يفهمـون مـن الأوامـر مجرد الحقيقة المتبادرة، يستنكفون أن يوضعوا مـع النـاس على قدم المساواة، فيتعالون فكرا ومادة حتى لو أدى بهـم هذا التعالي إلى الخروج عن حال التعبد.

3) المراوغة والإلتواء:

ما النفاق في الحقيقة إلاّ ضعف عـن المواجهـة، ومـا المنافقون إلاّ أناس استحكم المرض من قلـوبهم فضـعفوا عن المجابهة، ولذلك أسسوا سلوكهم على سياسة الخداع، ظنا منهم أنها سياسـة ذكيـة تحـول دون انكشـاف أمرهـم، قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: 09].

وبما أن الخداع يختنـق فـي أجـواء الوضـوح وأعـراف الاستقامة فإنهم يحرصون على الغمـوض والإلتـواء، فـترى

القوم يغمغمون ولا يصرحون، ويجملون ولا يفصلون، ليبقى الأمر قابلا لأن يفسر بالشيء ونقيضه، تبعا لما تتطلبه مصلحة السلامة!!. وغالبا ما يصل بهم الخداع إلى حد الكذب والحلف عليه، قال تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ} [التوبة: 74].

4) التلون في الموقف:

بعض الناس يحسب اللؤم قوة وبراعة، ودليلا على الوعي والذكاء، وهو في الحقيقة ضعف وخِسة، وعلامة على الخبث والسفاهة، والمنافقون من هذا الصنف، لا يجدون في أنفسهم الشجاعة لمجابهة الباطل بالحق الصريح، ولا الجرأة لمواجهة الحق بالرفض الصَريح، ولكنهم يتقلبون ويتأرجحون، قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ} [البقرة: 14]، يحرصون على الأخذ بخاطر أهل الحق {قالوا آمنا}، ويصرون على إرضاء أهل الباطل {إنا معكم}، ويجعلون هذا التلون أداة لاتقاء الأذى، وستارا للطعن من الداخل.

5) المظهر على حساب الجوهر:

المنافقون ضعفاء، وعوامل الضعف كامنة في أصل حقيقتهم، ويكفي دليلا على ضعفهم أنه {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَض}، وهم يعرفون هذا الضعف، وكثيرا ما يحسّون به، ولذلك يسارعون إلى تعويض الضعف الحاصل في الجوهر ببعض الشكليات المزيِّنة للمظهر، المظهر الذي لا يتجاوز أجسامهم، (نموذج للاهتمامات القريبة والسقف المنخفض)، قال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} [المنافقون: 04]، صورة ناصعة للفراغ من معاني الحق {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ}، والسلبية الكاملة اتجاهه {مُسَنَّدَةٌ} فهي لا تتحرك.

عموما ليست هذه إلاّ بعض العلامات التي يستطيع المؤمنون أن يميزوا بها المنافقين، وإن كان الكثير منها لا

يظهر إلاّ بوجود المؤثرات الـتي تسـتفز المكنـون النفسـي وتخرجه إلى عالم الشهادة، وليـس كالجهـاد محـك لإخـراج حقيقة القوم.

* * *

ثالثاً: أحوال المنافقين مع الجهاد:

عنـدما تشـرق شـمس الجهـاد علـى أرض السـاحة الإسلامية تستخرج حرارتُها كـل الرطوبـات المتعفنـة الـتي تتشكل في الأجـواء البـاردة، ويكشـف نورهـا السـاطع كـل الطفيليات التي تتستر بظلام القعـود، فيظهـر الجميـع مـن خلال المواقف:

1) {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِف}:

الصراع على أشده، والحرب قائمة، والمعارك حامية، وهؤلاء المنافقون "مرتـاحون" بـالجلوس فـي بيـوتهم، قـد فرغت قلوبهم مـن الانتصـار للحـق، لا يـؤنبهم الضـمير، ولا يحـز فـي نفوسـهم التخلـف. وهـي صـورة واضـحة لـدناءة الهمة، وغياب النخـوة، وضـعف الإرتبـاط بهـذا الـدين، فـإن القــوم طُلاّب ســلامة، همهــم محصــور فــي أشخاصــهم ووظائفهم، وفكرهم مقصور على سعادة أبنائهم وأزواجهم، حسبهم مـن التـدين مـا لا يـثير "المشـاكل"، ويكفيهـم مِـن الإسـلام مـا لا يحمـل المتـاعب، قـال تعـالى: {رَضُـوا بِـأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِـعَ عَلَـى قُلُـوبِهِمْ فَهُـمْ لا يَفْقَهُـونَ} [التوبـة: 87]، نمـوذج للإنسـان "النـاعم" الـذي لا يصـلح لشيء مما يصلح له الرجال!!

2) {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ}:

من القوم من لا يرضى بالقعود فحسب، وإنمـا يفـرح به ويبتهج، وتغمره السعادة والسـرور، قـال تعـالى: {فَـرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ} [التوبـة: 81]، فهـم يعـدون القعـود نعمة من النعم التي تستحق أن يظهـر أثرهـا علـى العبـد!! ولذلك يفتخرون به، بل ويعدونه مـن تجليـات حكمتهـم فـي العمل الإسـلامي! وهـي صـورة مناقضـة للمـؤمنين الـذين

حالت الظروف بينهم وبين الجهاد ف {تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} [التوبة: 92].

3) {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنّ}:

إن الباطل ليحرجه أن يرى الحق بجانبه، لأن أمره حينئذ سيفتضح، ولذلك يجتهد في دفعه وتخلفه، وهذا هو شأن القعود مع الجهاد، وهو شأن القاعدين مع المجاهدين، قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَن} [النساء: 72]، وانتبه إلى كلمة منكم، فالمنافقون دائما {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} [التوبة: 56]، يجتهدون في تبطئة الجهاد، مرة بالترويج للشبهات، ومرة بنشر الأراجيف، ومرة بالتعويق، ويصرون على ذلك إصرارا - ليبطئن بكل وسائل التوكيد - في عملية واضحة لعرقلة التحرك الجهادي.

4) {وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلاً}:

قليلا ما يجاهدون، ونادرا ما يقاتلون، قال تعالى: {وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلاً} [الأحزاب: 18]، والسر في "قليلا" - والله أعلم - لأنهم إما أن يكونوا في الجهاد أداء لمهمة الاختراق الاستخباراتي (غالبا من الصنف الأول)، وإما أن يحضروه تجنبا للإحراج واستجابة للضغط الذي يفرضه الجو العام (غالبا من الصنف الثاني)، فالأولون يتركون الجهاد بمجرد انتهاء مهمتهم أو انكشاف أمرهم، والآخرون لا يجاهدون إلاّ جهادا تجمع عليه الجماهير، وتأذن به أعراف المجتمع الدولي.

ومهما يكن من أمرهم فإنهم عند المعارك يعرفون، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْت} [الأحزاب: 19]. فهو الجبن الذي يصل بهم إلى حد فقدان التماسك، كما أنهم يعرفون بشحهم فلا يبذلون الطاقة ولا يستفرغون الوسع، قال تعالى: {وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلاً} [الأحزاب: 20].

5) {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَاد}:

أما بعد انتهاء المعركة فإنهم يخرجون من جحورهم، وترتفع أصواتهم، ويكثرون الإدعاء، قال تعالى: {فَإِذَا ذَهَبَ

الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [الأحزاب: 19]، ويكثر نعيقهم ويشتد عندما يتأخر النصر أو يتخلف، فيجدونها فرصتهم السانحة للهجوم على الجهاد والمجاهدين؛ "ها قد جربتم؟"، "ألم نقل لكم؟"، "ألم ننصحكم؟"، "يا أخي فلنكن واقعيين"، "أليس هناك طريق للتغيير وتحقيق الأهداف إلاّ عبر الجهاد؟"!!

وهكذا... ينتفشون وينتعشون بعدما كانوا في جحورهم يرتعدون، قال تعالى: {سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُم} [الأحزاب: 19]، وأشد من هؤلاء نفاقا أولئك الذين لا يأتون البأسا أصلا - لا قليلا ولا كثيرا - ومع ذلك لا يسلم المجاهدون من سلاطة ألسنتهم!!

6) مع الكفار على الجهاد:

عندما يشتد الصراع، وتبلغ الحرب حالة لا يبقى معها إلاّ أن يكون المرء مع الجهاد أو ضده، وتخرج سياسة الكفار عن قواعد المناورة بإعلانهم الصريح "إما معنا أو مع الجهاد"، وتتغير المعطيات بحيث لم تعد تُقبل سياسة الوسطية بين الحق والباطل، عندما يكون هذا هو الواقع فإن المنافقين يختارون أن يكونوا "معهم"!!

قال تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} [المائدة: 52]، يصرخون أنهم ضد الإرهاب، بل إنهم مع الحملة الصليبية في حربها على الإرهاب، وقد يصل بهم اللؤم إلى استخراج الفتاوى المفبركة التي تقول للجندي "المسلم" في القوات الأمريكية: "أقتل المسلمين ولا حرج، دمر دولتهم ولا بأس، فإن خفت تأنيب الضمير فانوِ أنك تحارب الإرهاب"!!

تلك هي حقيقة النفاق وتلك هي علامات المنافقين، قد كشفها الوحي للمؤمنين وجلاها، {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} [محمد: 29].

قال الطبري: (فيبديه لهم ويظهره حتى يعرفوا نفاقهم وحيرتهم في دينهم) [التفسير: 26/60].

فلم يبق إذن إلاّ استصحاب يقظة تستحضر المنظار الرباني في الحكم على الأشخاص، وعندها {فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [محمد: 30].

منبر التوحيد والجهاد

* * *

ten.esedqamla.www//:ptth
sw.dehwat.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth